مجلة أبعاد/ مختبر الأبعاد القيمية للتحوّلات الفكرية والسياسية بالجزائر
جامعة وهران2 – المجلد 07/ العدد 1 – 30 جوان 2020
ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

التوجيه الجمالي ودوره في تركيب الثقافة
مقاربة حضارية لِـ مالك بن نبي

Esthetic orientation and its role in the structure of culture: Malek Bennabi's Approach to Civilization

وفـاء عمـران* [1]

amranewafa14@gmail.com

[1]. كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة لونيسي علي – البليدة 2 – الجزائر

****

تاريخ الإرسال: 2020/03/06 | تاريخ القبول: 2020/03/10 | تاريخ النشر: 2020/06/30

الملخص:

عندما توصل بن نبي إلى أن الثقافة عامل فعال في العملية الحضارية، فقد بحث في جوانبها المختلفة، إذ لم يكتف بتشخيص مفهومها فحسب، بل تجاوز ذلك إلى اقتراح برنامج متكامل يمكن من شحن عناصرها الحية الإيجابية، من أجل وضع المجتمع على عتبة دورة حضارية مدروسة ومخطط لها بطريقة منهجية -من خلال توجيه عناصر الثقافة الأربعة وهي التوجيه الأخلاقي، التوجيه الجمالي، المنطق العملي والتوجيه الصناعي، لأن مشكلته بالأساس، لم تكن منحصرة في محاولة فهم الثقافة، وإنما بدرجة أساسية في تحقيقها وتمثلها بصورة عملية وتطبيقية، وهذا ما يقصده بن نبي بالتركيب النفسي للثقافة. وفي مقالنا فإننا نركز على المركب الثاني في معنى الثقافة عند بن نبي وهو البعد الجمالي.

الكلمات المفتاحية: مالك بن نبي؛ الجمال؛ التوجيه؛ التوجيه الجمالي؛ الذوق؛ الثقافة؛ الحضارة.

Abstract:

When Ben Nabi concluded that culture is an effective factor in the cultural process and discussed its different aspects, he not only diagnosed its concept but went beyond that to suggest an integrated program that enables the shipment of its positive living elements. In order to put society on the threshold of a studied and planned civilization course in a systematic way - by guiding the four elements of culture, which are : moral guidance, esthetic

* المؤلف المرسل:

guidance, practical logic and industrial guidance. The problem was essentially not confined to an attempt to understand culture, but mainly toachieve it and to represent it in a practical and practical way, which is what Bennabi meant by the psychological structure of culture. In our deliberations and in order to conform to the requirements of the theme of the meeting, we focus on the second complex in the meaning of culture at Bennabi, which is the esthetic dimension.

Keywords: Malik Bennabi; beauty ; guidance; esthetic orientation; taste; culture ; civilization.

مقدمة:

يعتبر الجمالُ مطلباً عاما لسائر الناس على اختلاف أجناسهم وأعمارهم، يسرون به إذا وجد ويبحثون عنه إذا غاب، والإنسان بفطرته يسعى إلى تكوين بيئة جمالية من حوله بداء من لباسه وبيته إلى محيطه ومجتمعه فهو يدرك يقينا أن حياته بلا جمال مدعاة للسآمة والكآبة والملل، وإن كانت الحضارة الغربية قد أخذت نصيبها وقدرا وافرا من الجمال، فإن النهضة الإسلامية لفي أشد الحاجة إلى تربية ذوقية ترهف حسها بمواطن الجمال وبخاصة في هذا العصر الذي يعتبر الجمال واجهة تقدم به الدعوات والأفكار.

وتتأكد الحتمية لاستعادة الاهتمام بالبعد الجمالي في ساحة الفكر الإسلامي المعاصر لأننا ما نزال مضطرين إلى نفي الخصومة بين الإسلام والجمال التي يؤمن بها الكثيرون من أبناء جلدتنا ومن ذوي ثقافات الآخر، هذا الافتراض يكشف أننا لم نكتشف بعد القيم الجمالية في هويتنا وحضارتنا وديننا وما يكتنزه في أعماقه من مكنونات جمالية بديعة تتطلب التجديد والإحياء أو كما أطلق عليه بن نبي بالتوجيه الجمالي.

الإشكالية: ماذا يقصد مالك بن نبي بالتوجيه الجمالي وما هو دوره في معادلة تركيب الثقافة والنهوض بالحضارة الإسلامية؟

1. الجمال في القرآن والسنة:

إن من يتأمل القرآن يجد أن الجمال بلغ غايته حين ربطه الله بينه وبين عبادته فقال:﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(31) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ**

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (32)﴾[1].

يستخلص من هذه الآية الكريمة مجموعة من الدلائل:

– أن الله استفتح خطابه بنداء عام (يا بني آدم) ولم يقل يا أيها المسلمون، لأن هذا الذي يأمر به بعدها تشترك في السعي إلى تحقيقه كل ذات إنسانية سوية؛

– المسجد في عرف المسلمين هو كل ما طهر من الأرض كما جاء في الحديث "وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا"، يدل على أن المسلم مطالب بأن يولي جانب الزينة مكانة خاصة في كل زمان ومكان؛

– إضافة الزينة إلى الله إضافة تشريف، فلمحلها العظيم، نسبها الله إلى ذاته الشريفة كفى بها تعظيمًا. ربما هي أبلغ عبارة عن الجمال وأرق إشارة إليه[2].

إن النظر في آيات الجمال هو امتثال لأوامر الله سبحانه وتعالى: **﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾**[3]، "وهذا النظر في هذه الآيات هو سبيل من سبل الاستدلال على جود الله، وعلى كمال قدرته وبديع صنعته وما تعطيل النظر في آيات الجمال هذه باصطناع الخصومة بين الإسلام وجماليات الحياة إلا تعطيل للدليل على وجود الصانع لهذه الآيات"[4]، والأمر سيان لسيرة النبي العدنان عليه الصلاة وأزكى السلام، فهي سيرة جمالية مثلت الجمال في أعلى كماله، لقد خلقه الله في أحسن هيئة بشرية وما هذا إلا لتحبيبه إلى خلق الله فيكون مدخلا إلى قبول ما يأتي به، والنفس تميل إلى الحسن والبهاء، في حديث يرويه ين مسعود: "لا يدخل النار من كان في قلبه حبة من إيمان، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر" عند ذلك قال رجل: يا رسول الله إني ليعجبني أن يكون ثوبي

[1] الأعراف: 32/31.

[2] وحيد حرحوز، الذوق الجمالي في القرآن الكريم، رسالة غير منشورة لنيل متطلبات درجة ماجستير قسم العقائد والأديان، جامعة الجزائر، 2013/2012، ص18.

[3] الأنعام: 99.

[4] المرجع السابق، ص100.

غسيلا، ورأسي دهينا، وشراك نعلي جيدا وذكر أشياء حتى ذكر علاقة سوطه أفمن الكبر ذلك يا رسول الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا ذلك الجمال، إن الله جميل يحب الجمال، ولكن الكبر من سفه الحق وازدرى الناس"[1].

إلا أن التفكير الجمالي الإسلامي يخضع لمجموعة من الخصائص والتي بدورها تؤطر الفن الإسلامي بقوانين محددة هي:

أ. الإعراض عن كل ما يبعد المؤمن ويصرفه عن واجبه الديني

ب. الإعراض عن كل ما يعيق قيام المجتمع الإسلامي

ج. كراهية تصوير الكائنات الحية وبخاصة الوجه الإنساني

د. الانصراف عن الترف المجرد وبخاصة في عمارة المسجد

هـ. الانصراف عن التجسيم والاستعاضة عن البعد الجسماني المادي

إذا فإن الموقف الإسلامي نظر من زاوية وظيفية التي تؤديها ومدى النفع الذي تسديه للإنسان لبلوغ أهدافه الروحية والاجتماعية الفن الهادف للبناء الحضاري[2].

2. المسلم وتقهقر الجمال:

الأصل في الإسلام الإباحة، والحرام استثناء للحلال إلا أن حيز الحلال قد تراجع من بعد الانحطاط، وحَل التحوط والمبالغة في اتقاء الشبهات محله، فتراجعت حرية الرأي وتقلص الإبداع وقُزمت المبادرة خاصة في الفنون والآداب والجماليات على الرغم من أن الجمال مقصد رباني مسموح في الكون والأنفس والتشريع. فلو قمنا بتتبع الحركات الإسلامية نجد عند غالبيتها اهتمام بالذوق الجمالي،حتى غدا الوعي الجمالي والأحاسيس الراقية والفنون عامة، غريبة عن المسلمين.

هذه الحالة جعلت البعض يفكر في وجود الخصومة بين الإسلام والجمال، جعلت من المسلم ينظر إلى الجمال نظرة ريبة وتحمله قصرا إلى أن يدير ظهره إلى ما في كون من آيات الزينة والجمال والبهجة، حتى غدا عند البعض سلوكا يعرفون به، ولقد اتخذ

[1] رواه أحمد، مسند الإمام أحمد تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة،ج6، 1996،ص332.

[2] محمد أمين عميرات، التراث بين مالك بن نبي ومحمد عابد الجابري، أطروحة غير منشورة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في الأنثروبولوجيا، جامعة ابي بكر بلقايد، تلمسان، 2014- 2015، ص ص 92-93.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

بعض المستشرقين هذا السلوك الخشن إحدى المطاعن التي يشوهون بها الإسلام[1] يمكن أن نضرب مثال ذلك ما نشاهده يوميا من تصرفات بعيدة عن معاني الجمال من مرتادي المساجد وسلوكات المصلين في إهمال نظافة حمامات الوضوء وبعثرة أحذيتهم عند مداخل بيوت الله، أو اتساخ أثوابهم وشعث أذقانهم ونفس الأمر بالنسبة للمرأة المسلمة وهي تحمل مخلفات الشوارع بجلبابها المتسخ فائق الطول .

قد يكون سبب هذه الحالة الصراعات التاريخية بين المسلمين وأعدائهم والحروب الطاحنة التي لم تترك للمسلم متسعا للترويح والإمتاع بالجمال وحتى التفكير فيه فكان نتيجة هذا ضعف بالجانب الفكري الذي انتقل من الإبداع والتقليد والحَرفية مما أفقد الإسلام فاعليته .

3. مفهوم التوجيه الجمالي عند مالك بن نبي:

معنى التوجيه في طرح مالك :

كلمة التوجيه من الكلمات التي تحدث عنها بن نبي باهتمام وربطها بأفكاره الأساسية، وباتت تعد من المفردات التي تصنف في قاموسه الفكري ومنظومته الثقافية[2]

وهو تجنب الإسراف في الجهد وفي الوقت،فهنالك ملايين السواعد العاملة والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية صالحة لأن تستخدم في كل قوت،والمهم أن ندير هذا الجهاز الهائل المكون من ملايين السواعد والعقول في أحسن ظروفه الزمنية والإنتاجية المناسبة لكل عضو من أعضائه[3].

التوجيه أو الذوق الجمالي:

فمثلما تحتاج الثقافة الفعالة إلى نزعة أخلاقية تغذيها وتوجهها، فهي تحتاج أيضا إلى ذوق جمالي وحس فني وقدرة على الابتكار والإبداع، فالذوق هو الذي يبعث في الإنسان نزوعا إلى الإحسان في العمل وتوخيا للكريم من العادات[4]، وهو الذي يطبع الصلات الاجتماعية بطابع خاص، فهو يضفي على الأشياء الصورة التي تتفق مع الحساسية والذوق العام من حيث الألوان والأشكال.

---

[1] وحيد حرحوز، مرجع سابق، ص 16.
[2] زكي ميلاد، المسألة الثقافية من أجل بناء نظرية في الثقافة، مكتبة مؤمن قريش، بيروت، ط2، 2010، ص67.
[3] مالك بن نبي، شروط النهضة، تر عمر كامل مسقاوي، دار الفكر، بيروت، ط1، 2013، ص84.
[4] المصدر السباق، ص90.

والذوق الجمالي يرتبط ارتباطا وثيقا بالمبدأ الأخلاقي من حيث أنه أيضا عنصرا من العناصر المكونة والمحركة للثقافة ولأنه يحفز الهمم إلى ما هو أبعد من المصلحة[1]، والذوق الجمالي إذا ارتبط بالمبدأ الأخلاقي فإنه يكون أبعد أثرا في تهذيب النفوس ترتيبها، وقد نبه النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهمية الإحسان في العبادة والفكر والعمل[2]، وجعله مرتبة أعلى من الإسلام والإيمان، وقد عرف عنه صلى الله عليه وسلم استخدامه أسلوب التعريض عندما كان يريد انتقاد بعض القيم السلبية حرصا منه على عدم ذكر أسماء مرتكبيها فكان يقول: "ما بال قوم يقولون كذا أو يفعلون كذا"، وعليه فحين يكون المبدأ الأخلاقي ضروريا للعمل من حيث دوافعه وغاياته يكون العنصر الجمالي لازما لصورته وفاعليته"[3] ولذلك فإن أي حركة تبتغي طريق الحضارة لا بد أن تعمل على ترقية ذوقها الجمالي كما عملت على تأسيس دستورها الأخلاقي .

وراح يؤكد بن نبي في كتابه مجالس دمشق على هذا العنصر الجمالي داعيا الثقافة إلى أن تمدنا بالذوق الجمالي، وتنمى فينا هذا الحس بشرط أن لا نعتقد حسب قوله أن الإسلام قد أهمل أو زهد في ها الجانب وذلك لترتيب شؤون مجتمعنا، لأنه في رأيه أن النشوز إذا كان يحدث في المستوى الأخلاقي فهو يحدث أيضا في المستوى الجمالي[4].

غير أن ابن نبي لا يهتم بإعطاء تعريف دقيق للجمال من وجهة لغوية، بقدر ما يهتم بهذه النزعة من وجهة دخولها في تركيب الثقافة، وتأثيرها على الإطار الاجتماعي. ومن هنا يمكن القول: إن تركيز بن نبي كان على التحديد الاجتماعي والحضاري للقيمة الجمالية، أكثر من عنايته بالمصطلح ذاته من ناحية النشوء اللغوي.

إن التربية الاجتماعية في نظر مالك ترتبط ارتباطا وثيقا بثقافة جمالية تخلق في نفس الفرد قابلية إلى الإحسان في العمل وربما يقصد بن نبي من قوله بالإحسان في هذا المقام إشارة إلى إتقان العمل وتقديمه في أحسن حلة فإن كان السعي للعمل والاجتهاد هو مبدأ أخلاقي يضمن للفرد علو نفسه وارتقاءها من سؤال الناس فإن إتقانه لعمله

[1] مالك بن نبي، تأملات، دار الفكر، دمشق، د.ط، 1979، ص 146.
[2] لويزة لعميري، نظرية الثقافة عند مالك بن نبي دراسة تحليلية نقدية، رسالة مقدمة لنيل شهادة ماجستير، جامعة تيزي وز، كلية الآداب واللغات، 2014، ص79.
[3] مالك بن نبي، تأملات، مصدر سابق، ص146.
[4] مالك بن نبي، مجالس دمشق، دار الفكر، دمشق، ط1، 2005، ص 110.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

هو ذوق جمالي وسمة فنية تنم عن ما يحمل بداخله هذا الفرد من نزعة جمالية، لأن الفرد مجبول بطبعه إلى حب الجمال ميال بسجيته إلى التقرب من كل ما هو جميل سواء كان هذا الجمال رائحة أو حركة أو شكلا[1].

منطلقات البعد الجمالي وتأثيرها على أفكار بن نبي:

التربية الصحيحة هي التي ترمي إلى غايات محددة وأهداف بديلة، ولا ريب أن أهمها حب الخير والإخلاص اللذان هما نتيجة للتربية الأخلاقية، وحب الحق الذي هو نتيجة للتربية العقلية وحب الجمال الذي هو نتيجة للتربية الذوقية، من هنا يمكن القول أن التنشئة الأخلاقية التي نما عليها بن نبي في بيئته الجزائر إلى جانب المؤثرات الفنية والجمالية التي اكتسبها في باريس الأثر في بلورة أفكاره التربوية[2]، إن إعادة البناء الحضاري في مجتمعنا العربي والإسلامي ينبغي أن يبدأ أولا من تربية الفرد والمجتمع وفق ثقافة لها من الدعائم: الأخلاق لبناء الصلات الاجتماعية والجمال لبناء الذوق العام .

ولا شك أنه كان للحياة الباريسية بما فيها من نظام وتنسيق وقيم جمالية تسرى في سلوك الناس اليومي أثر بالغ في تشكليه الذوقي وتصوراته الجمالية، وإيحاءاته التربوية مما دفعه إلى القول بتضمين الثقافة المربية عنصر الجمال الذي يمكن أن نلاحظه في نفوسنا وأن يتمثل في شوارعنا وبيوتنا ومفاهيمنا[3].

وقد لاحظ ذلك في سلوك زوجته الباريسية، فالنظافة والدقة في ترتيب الأشياء وتنسيقها وفنون الأشغال اليدوية، وغير ذلك من الأعمال والسلوكيات اليومية ذات المعطى الجمالي تحيي المناخ الاجتماعي وتزيده رونقا، ذلك المناخ الذي عبر عنه بقوله: "إنه دالة على التطور النفسي الذي سيجعلني من أشد الناس نفورا من كل ما يسيء لذوق الجمال، ويفسر ثورتي على بعض جوانب تخلفنا التي تصبح موضع السخرية ..غير أن الاستعدادات التي تدفعنا إلى هذا الموقف كانت أصيلة في نفسي وإنما وجودي في فرنسا ومعايشتي لزوجتي طورا هذه الاستعدادات الوراثية إلى أفكار اجتماعية واضحة"[4].

---

[1] علي قريشي، الثقافة والهوية في فكر مالك بن نبي، مداخلة في محور الفكر الأنثروبولوجي المعاصر، ص303.
[2] حامد عزيز، التربية وبناء الحضارة في فكر مالك بن نبي، مجمع الأطرش للكتاب المختص، تونس، 2014، ص 47.
[3] المرجع السابق، ص47.
[4] مالك بن نبي، شروط النهضة، مصدر سابق، ص106.

4. أثر الجمال في المجتمع وأهميته الاجتماعية:

يقول بن نبي: ولا شك أن للجمال أهمية اجتماعية كبيرة، إذا ما عددناه النبع الذي تصدر عنه وبواسطته تلك الأفكار أعمال الفرد والمجتمع[1]، فيرى بن نبي أن الجمال له تأثير في الروح الاجتماعية، ويشرح هذه الفكرة بقوله: "إن الأفكار هي المنوال الذي تنسج عليه الأعمال، وهي تتولد من الصور الحسية الموجودة في الإطار الاجتماعي، فتنعكس في نفس من يعيش فيه، وهنا تصبح صورا معنوية يصدر عنها تفكيره فالجمال الموجود في الإطار يشتمل على ألوان وأصوات وروائح وحركات وأشكال، يوحي للإنسان بأفكاره، وبطبعها بطابعه الخاص، من الذوق الجميل، أو السماجة المستهجنة"[2].

إن الجمال في نظر بن نبي له أهمية اجتماعية هامة، إذا ما تم عدّه المنبع الذي تنبع منه الأفكار، وتصدر عنه بواسطة تلك الأفكار أعمال الفرد في المجتمع. ومن هذه الجهة فإن أزهد الأعمال له صلة كبرى بالجمال، فالشيء الواحد قد يختلف تأثيره في المجتمع باختلاف صورته التي تنطق بالجمال، أو تنضح بالقبح، وتظهر أثر تلك الصورة في تفكير الإنسان، وفي عمله، وفي السياسة التي يرسمها لنفسه، ومن الواضح عند بن نبي أننا أصبحنا اليوم نفقد ذوق الجمال، ولو أنه كان موجوداً في ثقافتنا لسخرناه إذن لحل مشكلات جزئية، تكوّن في مجموعها جانباً من حياة الإنسان[3].

لهذا يعتبر بن نبي أن الذوق الجمالي من أهم العناصر الديناميكية في مكونات الثقافة، لأنه حسب رأيه يحرك الهمم إلى ما هو أبعد من مجرد المصلحة، ويحقق شرطا من أهم شروط الفعالية لأنه يضفي إلى الواقع الأخلاقي عند الفرد دوافع إيجابية.[4]

يرى بن نبي أنَّ الإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال، بل إن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة، فينبغي أن نلاحظ في نفوسنا، وأن نتمثل في شوارعنا وبيوتنا مسحة الجمال نفسها، التي يرسمها مخرج رواية في منظر سينمائي أو

[1] مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تر:عبد الصابو شاهين، دار الفكر، دمشق، ط18، 2015، ص82.
[2] مالك بن نبي، نفسه، ص82.
[3] مالك بن نبي، شروط النهضة، مصدر سابق، ص 98.
[4] زكي ميلاد، مرجع سابق، ص68.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

مسرحي. ويجب أن يثيرنا أقل نشاز في الأصوات والروائح والألوان، ويثيرنا منظر مسرحي سيء الأداء، وذلك باعتبار أنَّ الجمال هو وجه الوطن في العالم، فلنحفظ وجهنا لكي نحفظ كرامتنا، ونفرض احترامنا على جيراننا الذين ندين لهم بالاحترام نفسه[1].

فالبعد الجمالي عنصر ثقافي يظهر في كل نشاط يقوم به الفرد والعكس فلا يمكن لصورة قبيحة أن توحي بالخيال الجميل، فإن لمنظرها القبيح في النفس خيالا أقبح، والمجتمع الذي ينطوي على صورة قبيحة لا بد أن يظهر أثر هذه الصورة في أفكاره وأعماله ومساعيه، يضرب مالك مثالا في ذلك بقوله: "فالطفل الذي يلبس ملابس بالية وثياب قذرة، التي إن شئنا وصفها قلنا إنها ثياب حيكت من قاذورات وجراثيم، مثل هذا الطفل الذي يعيش جسمه وسط هذه القاذورات والمرقعات غير المتناسبة يحمل في المجتمع صورة القبح والتعاسة معا، بينما هو جزء من ملايين السواعد والعقول التي تحرك التاريخ، ولكنه لا يحرك شيئا لأن نفسه قد دفنت في أوساخه، ولن تكفينا عشرات من الخطب السياسية لتغيير ما به من قبح إن هذا الطفل لا يعبر عن فقرنا المسلم به بل عن تفريطنا في حياتنا"[2].

إن نظرة بن نبي لمفهوم الجمال تقوم على الأبعاد والوظائف النفسية والاجتماعي فهو من عناصر التغيير الاجتماعي كما هو وسيلة من وسائل البناء الحضاري، وهو الذي يجعل ثقافة ما متميزة عن الثقافات الأخرى[3].

يقول مالك بن نبي: الأساس الذي تقوم عليه الثقافة هو ذوق الجمال الذي يطبع الصلات الاجتماعية بطابع خاص فهو يضفي على الأشياء الصورة التي تتفق مع الحساسية والذوق العام ألوانا وأشكالا ن فإذا كان المبدأ الأخلاقي يقرر الاتجاه للمجتمع بتحديد الدوافع والغايات، فإن ذوق الجمال هو الذي يصوغ صورته [4].

5. مقومات الفنون الجميلة:

إن الفن هو سلاح ذو حدين فهو إما يدعوا إلى الفضيلة ورفعة الأخلاق وإما معكوس يدعو للرذيلة ومشيع للفساد ويعود هذا لتحديد وسائله وأهدافه. فالرقص عندنا أصبح

[1] مالك بن نبي، شروط النهضة، مصدر سابق، ص100.
[2] المصدر نفسه.
[3] محمد أمين عميرات، التراث بين مالك بن نبي ومحمد عابد الجابري، مرجع سابق، ص93.
[4] مالك بن نبي، تأملات، مصدر سابق، ص151.

صورة جنسية لا قصيدة شعرية فأصبحت مشوهة الذوق داعية لإثارة الغرائز بعيدة كل البعد عن سمو الخلق وعلو الهدف شأنها في ذلك شأن الموسيقى والسينما خاصة المصرية منها التي عملت على تكريس الانحطاط الفكري والأخلاقي فلا تجد لها مكان من الواقع إلا في أحوال قليلة، إن الفن الحقيقي يحتاج إلى عمل ومثابرة لا يقترن بالكسل وللامبالاة فهو يحتاج إلى اقتران الموهبة بالقدرة ولا فائدة لواحدة دون الأخرى[1].

لقد أصبح الفن ملازما للكسل والخمول حتى صرنا نعجب إذا سمعنا أن المقدرة والنبوغ في الفن هما نتيجة الكد والجهد. وصار الفنانون بحد وصفهم لأنفسهم يقتصرون على مواهبهم لا على مجهوداتهم الشخصية في ميدان الفن الجميل هذا من جهة وما رافقه من إهمال في المظهر مبالغة في البساطة ليظهروا أصالتهم الفنية وما هذا إلا رياء كاذب يشابهون فيه أولئك الفئة من شباب الرياضة الذين يبالغون في التعقيد مقلدين أبطال السينما في إطالة الشعر واستخدام المساحيق، وهذا ليس من الفن في شيء بل ضرب من ضروب الجنون.

6. النقد الذي تعرض له مالك لطرحه للبعد الجمالي:

بن نبي تحدث عن البعد الجمالي في كتابه (شروط النهضة) الصادر سنة 1949م، وأعاد الحديث عنها في كتابه (مشكلة الثقافة) الصادر سنة 1959، وظل يذكَّر بها في معظم كتاباته ومحاضراته التي خصصها لفكرة الثقافة، فقد أشار إليها في محاضرة له عن الثقافة، ألقاها في مدينة طرابلس اللبنانية سنة 1959، ونشرت في كتابه (تأملات) الصادر سنة 1961م، وأشار إليها في محاضرته عن الثقافة والأزمة الثقافية، ألقاها في جامعة دمشق سنة 1972، ونشرت في كتابه (مجالس دمشق) الصادر سنة 2005م. وهكذا في محاضرات وكتابات أخرى. ومع ذلك فإنَّ هذه الرؤية على أهميتها وقيمتها وندرتها لم تلفت الانتباه كثيراً، لا في الكتابات التي تحدثت عن بن نبي نفسه وفكره ونظرياته، ولا في الكتابات التي تحدثت عن فكرة الجمال في الفكر الإسلامي.

والغريب في الأمر، أن الذين التفتوا لهذه الفكرة هم أولئك الذين حاولوا توجيه النقد السلبي لمالك بن نبي، فقد وجد هؤلاء في فكرة التوجيه الجمالي شاهداً في نظرهم، على تأثر بن نبي بالثقافة الأوروبية، التي تعلي من شأن الجمال وتقدسه. وهذا ما كان

[1] مالك بن نبي، شروط النهضة، مصدر سابق، 153.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

يفتش عنه هؤلاء الذين كانوا في خصومة فكرية مع بن نبي، وحاولوا توجيه النقد إليه، وإبرازه متأثراً بالثقافة الأوروبية، التي عاش في بيئتها ومجتمعها، ودرس وتعلم في محيطها فترة من الزمن تقدر بربع القرن، ومن وجه هذا الرأي صحيح، ولكن من غير الوجه الذي تحدث عنه هؤلاء وسياقهم التوظيفي والنقدي، صحيح بمعنى أن بن نبي تنبه لفكرة التوجيه الجمالي حينما كان في باريس، ولو كان في الجزائر فلربما لم يكن لينتبه إلى هذه الفكرة، بهذا النمط الذي تحدث عنه، وأما من جهة المحتوى والمضمون، فإن حديث بن نبي عن فكرة الجمال والتوجيه الجمالي لم يخرج عن نسق الإطار الفكري الإسلامي. ليس هذا فحسب بل إنه استعمل هذه الفكرة في نقد الغرب والثقافة الغربية، على نحو يقطع على الآخرين توجيه الاتهام إليه من جهة أنه كان متأثراً بالثقافة الأوروبية، أو بالحياة الأوروبية.

نخلص إلى أن انقطاع الفكر الإسلامي عن علم الجمال ومبحث الجماليات، أو عدم العناية والاهتمام بهذا العلم، أسهم بدرجة كبيرة في عدم الالتفات لفكرة التوجيه الجمالي عند مالك بن نبي، وفي تقدير أهمية هذه الفكرة، والكشف عن قيمتها، ومدى الحاجة إليها. ومن جهة أخرى، فإنَّ الحاجة لاستعادة الاهتمام بعلم الجمال ومبحث الجماليات في ساحة الفكر الإسلامي المعاصر، يستدعي تجديد النظرة لفكرة مالك بن نبي في التوجيه الجمالي، والعناية بهذه الفكرة لتدعيم العلاقة بهذا العلم وتطويرها[1].

7. تحديد اتجاه الحضارة وفق أولوية الأخلاق أو الجمال:

إن المرأة تتخذ من الجمال مظهرا لها ويتخذ الرجل من القوة تعبيرا عنه إلا أن كليهما يعبر عن ذوق الجمال في أبسط صوره، وبذلك فإن المجتمع مهما كانت درجة بساطته أو العكس فإنه ينتج بذورا أخلاقية وجمالية نجدها في سلوكياته أي في ثقافته. وبطبيعة الحال فإنه بدرجة تطور هذه الأخيرة تكون البذور أقرب إلى الكمال حتى تصبح قانونا يخضع له المجتمع بل دستورا تقوم عليه حضارته .

[1] نقلا عن زكي الميلاد، الفكر الإسلامي المعاصر وعلم الجمال، من كتاب الفن في الفكر الإسلامي لفتحي حسن ملكاوي، منشور بتاريخ 3مارس، 2019، اطلع عليه 15جانفي 2020.http://www.khotwacenter.com

إن هناك صلة تجمع بين المبدأ الأخلاقي وذوق الجمال تُكوّنُ في الواقع علاقة عضوية ذات أهمية اجتماعية بالغة، إذ أنها تحدد طابع الثقافة كله ومن ثم اتجاه الحضارة حينما يصبح هذا الطابع الميسر لأسلوب حياة الفرد والمجتمع.

و يمكننا إدراجها ضمن الصيغة الجبرية التالية:

مبدأ أخلاقي + ذوق جمالي = اتجاه الحضارة.

إلا أن بن نبي لفت الانتباه إلى أن الترتيب الذي ينظم هذين العنصرين هو من يحدد خصوصية حضارة عن أخرى تاريخيا، وقد نتج عن هذا الترتيب ظهور نموذجين من المجتمعات.

الأول: تؤسس النشاط الاجتماعي عند أحداهما على القيم والدوافع الجمالية،

الثاني: تؤسس نشاط آخر على القيم والدوافع الأخلاقية، تمثل النموذج الأول الثقافة الغربية التي ورثت ذوقها الجمالي من التراث اليوناني والروماني، وتمثل النموذج الثاني الثقافة الإسلامية التي ورثت من التراث الإسلامي الشغف بالحقيقة[1].

وهي نفس الفكرة التي طرحها مالك بن بني في اختلاف الثقافات حيث قال:" نبين للقارئ أن الثقافات المختلفة تتفق في ثلاث عناصر معينة وقد تختلف بالنسبة للعنصر الأخلاقي لاتصاله بالعقيدة[2]، وبذلك يختلف النموذجين كل وفق ترتيب عناصر الثقافة وأولوية كل منها فيه.

يتّضح ذلك مثلا من خلال حضارتين فالمجتمع الغربي مارس فن التصوير وبالأخص تصوير المرأة العارية بدافع جمالي وعمل على تطوير لباسها حتى يبرز جمالها في الشارع إلا أن الفن الإسلامي لم يطلق العنان للفن أن يعبر عن كل أنواع الجمال وعلى الخصوص المرأة بشكل غير محتشم وهذا برادع أخلاقي وكذلك اتخذ لباسها في المجتمعات الإسلامية اتجاها آخر، هذا لا يعني أن الثقافة الإسلامية تفقد عنصر الجمال وإنما تضعه في مكان آخر من سلم القيم باعتبار إحدى القيمتين محورا، والأخرى تابعة، وهذا الاختلاف ليس من محض الصدفة. وإنما وليد منطلقات الثقافتين

[1] مالك بن نبي، شروط النهضة، مصدر سابق، ص109.

[2] أحمد لعربي، نحو مقاربة حضارية بديلة، (مجلة التغيير الاجتماعي)، جامعة محمد خيضر بسكرة، ع1، ص210.